دراسة أنثروبولوجية لقبور العصر الحجري الحديث في تل القرامل، شمالي سورية

يوسف كنجو

ملخّص: يتحدث هذا البحث عن القبور المكتشفة في تل القرامل بشمالي سورية، التي يعود تاريخها إلى العصر الحجري الحديث، مرحلة ما قبل الفخار –أ–، إذ عُثر على ٢٨ قبرا تحوي ٣٦ هيكلا بشريا. تنوعت عادات الدفن؛ إذ كانت هناك قبور أولية وثانوية وفردية وجماعية؛ كما كانت هناك قبور خاصة بالجماجم، وأخرى لهياكل كاملة. وقد كانت جميع الهياكل تعود لأشخاص بالغين، في وضعية الجنين. كما وجدت معظم القبور على علاقة مباشرة مع المباني المهمة. كانت عادة فصل الجمجمة من الظواهر المميزة لعادات الدفن في العصر الحجري الحديث في المشرق؛ وفي تل القرامل اكتشفنا طريقة فريدة لفصل الراس عن الجسم، وهي من خلال قَطْعه بأداة صوانية، إذ كانت آثار القَطْع واضحة على الفقرة العنقية الثانية (المحور) في القبر رقم T٢، وهي تعد أقدم حالة قطع رَأس مكتشفة حتى الآن في العالم.

__Abstract:__ This paper discusses the 28 graves and 36 skeletons discovered at Tell Qaramel, in north Syria, dating to the Pre-Pottery Neolithic A period (PPNA). The burial site was associated with residential structures; an indication of possible ancestor veneration. All the skeletal remains were adults and in flexed positions. Varied burial treatments were noted: individual and composite graves; and primary and secondary deposition. In some graves the skulls were separated from the bodies. Detached skulls are one of the most common phenomena of the Neolithic period in the Levant. Cut-marks on the second vertebra in grave 2 at Tell Qaramel suggest that a flint tool was used to separate the skull from the spine. The findings from Tell Qaramel are significant and provide some of the earliest evidence for beheading in the ancient world.

مقدمة

لقد شكّلت عادات الدفن موضوعا مهماً في البحث الأثري والأنثروبولوجي؛ نظرا لارتباطها الوثيق بالهوية الثقافية والبيولوجية بشكل عام، والدينية بشكل خاص. وسجّلت هذه العادات تطورا وتبدلا ملحوظَين في المستويَين المكاني والزماني، وقد حفظت هذه التغيرات في المجال الأثري بشكل جيد، ما أعطى فهما واضحا لكيفية العملية، بينما بقيت الأسباب الدافعة لهذه العملية يشوبها الغموض.

وكلما كانت الفترة التاريخية قديمة، تعقّدت العملية في الغموض، وفي الوقت نفسه قدمت معلومات ثقافية غنية. وقد كانت مجتمعات ما قبل التاريخ هي أول من أولى أهمية خاصة للموت والموتى؛ إذ اجتمعت في هذا السياق العوامل الثلاثة: الاجتماعي والاقتصادي والديني. وأفرغت شحناتها الثقافية التي تراكمت من خلال تجربة الإنسان في الحياة وعلاقاته مع الموت والحياة، ما أدّى إلى قيام تجارب تجلّت في مجموعة من الأعمال التي تهدف إلى التعامل مع جسد المتوفى، بطرق متنوعة تختلف باختلاف المجتمع والمنطقة، والتي أطلق عليها «عادات الدفن». وتعد المنطقة التي توجد فيها القبور الأهم في الموقع الأثري، ليس فقط لكونها تحتفظ ببقايا الإنسان نفسه، وإنما لكونها تعكس جزءاً كبيراً من ثقافته وحياته الاجتماعية. وقد أظهرت معظم الثقافات القديمة اهتماما مميزا بذلك (Binford 1971:11).

تشكّلت عادات الدفن في العصر الحجري الحديث (Neolithic) في المشرق من مجموعة من المفاهيم

(ص ص ٧-١٨) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩

لدى المجتمعات القديمة التي جذبت البحث الأثري منذ بداية الاكتشافات الأثرية في هذه الفترة، وخصوصا تلك الاكتشافات المتعلقة بالجماجم المفصولة والجماجم المقولبة في مواقع جنوبي بلاد الشام، منذ منتصف القرن العشرين، مثل: تل الرماد، وأريحا، وتل أسود. وهذه الظاهرة بدأت منذ الفترة النطوفية، واستمرت خلال العصر الحجري الحديث[١]، مرحلة ما قبل الفخار –أ- (PPNA) وازدهرت بشكل واسع في مرحلة ما قبل الفخار–ب- PPNB في جنوبي سورية وفلسطين والأردن وتركيا(Contenson 1992:186, Kuijt 1996: 322، أبو غنيمة ١٩٩٨). وقد دلّت الدراسات على أن العملية تحدث بهدف المحافظة على روح الجدّ في المكان، والقيام بطقوس للجماجم، وما اصطلح على تسميته بعبادة الأجداد (Kenyon 1957:72 & Kujt 2008:172؛ كوفان ١٩٨٤: ١٦٠).

شكّلت طريقة فصل الجمجمة عن الجسم أيضا مجال اهتمام للباحثين، وقد شُرحت الطريقة على أنها عملية معقدة تدوم لفترة من الزمن، وعلى عدة مراحل؛ يتم من خلالها الحصول على الجمجمة ثم معالجاتها بطريقة ما، ووضعها في مكان خاص في البيت أو خارجه (Kuijt 2008:175). وكانت هذه العادة جزءاً من التغيير في المجتمعات البشرية في العصر الحجري الحديث، الذي شمل مظاهر الحياة اليومية كافة، كما أنه ترافق مع ثورة التطور المعماري وظهور القرى الأولى؛ وكان ذلك نتيجة للتحوّل من حياة التنقل والترحال والاعتماد على الطبيعة إلى حياة الاستقرار والتحكّم بموارد الطبيعة، والذي أُطلق على مجموعة هذه الظواهر ما يسمى الثورة النيولتية (محيسن ١٩٩٤: ٥).

كشفت أعمال التنقيب في شمالي سورية في مواقع العصر الحجري الحديث وخصوصا في المرحلة المبكرة منه أو ما يسمى مرحلة ما قبل الفخار – أ – (Pre-pottery Neolithic -A-) PPNAعدداً قليلا من القبور في مواقع متعددة، مثل: تل المريبط، والجرف الأحمر، وتل الشيخ حسن؛ إضافة إلى أنها لم تدرس بشكل جيد، ومن ثَمَّ لم تُعطِ فهما كاملا لطبيعة عادات الدفن في هذه المنطقة. في هذا العمل نقدم دراسة أنثروبولوجية لعدد أكبر من قبور العصر الحجري الحديث التي تعود إلى فترة الـ PPNA المكتشفة في تل القرامل[٢] بهدف دعم وتوضيح عادات الدفن في شمالي سورية، وخصوصا تلك المتعلقة بآلية فصل الجمجمة عن الجسم بعد الموت ومقارنتها مع مواقع أخرى.

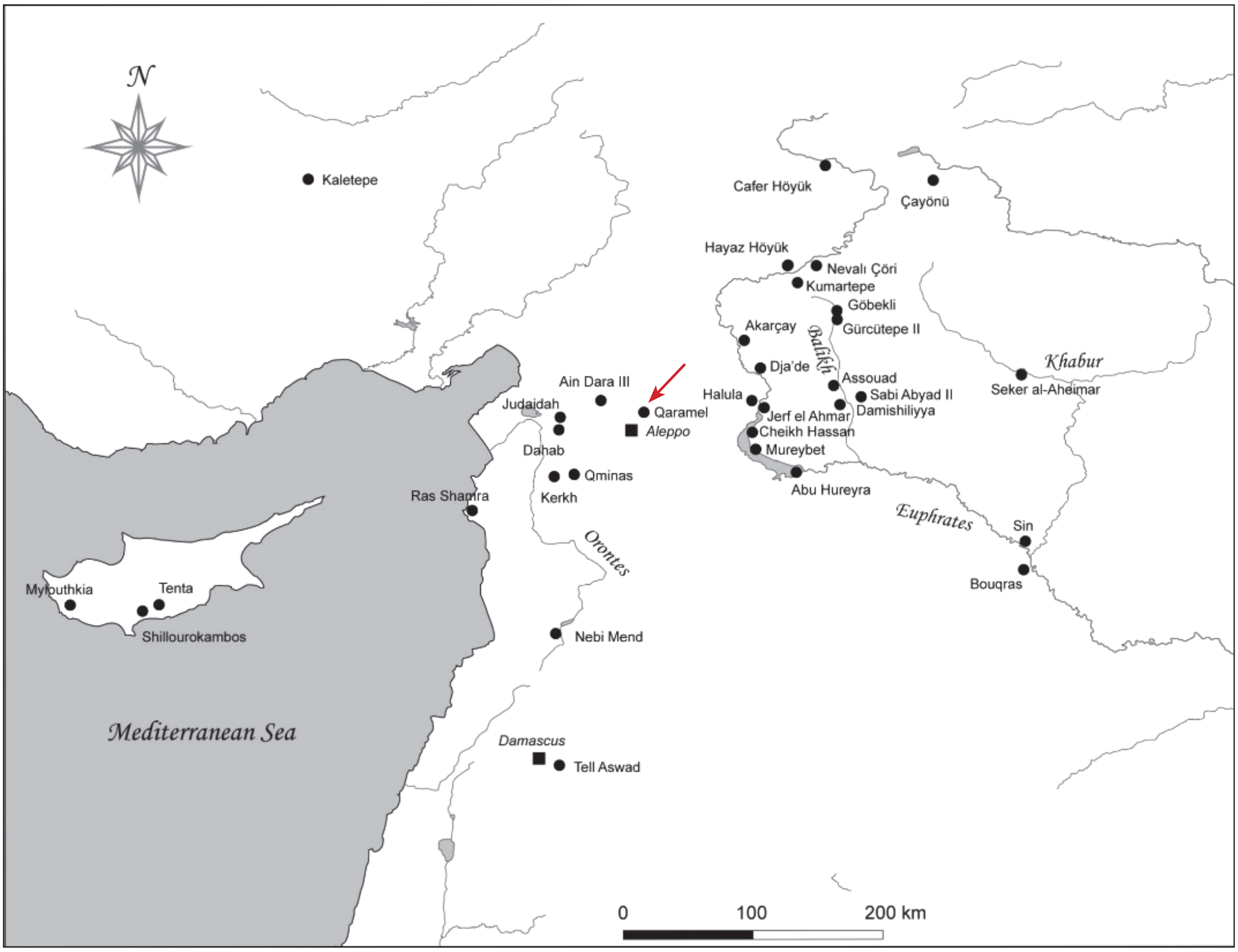
تل القرامل

يقع تل القرامل على الضفة اليمنى لنهر قويق، وعلى بعد ٢٥كم شمال مدينة حلب السورية، و٣٠كم من الحدود التركية؛ ارتفاعه عن سطح البحر ٤٤٣م، موقع المستوطنة هضبة حجرية كلسية ترتفع نحو ٣٠ -٣٥م فوق سرير النهر، وتبلغ مساحة المستوطنة في عصور ما قبل التاريخ ٣,٥ هكتار تقريبا، تُغطى بتل أثري أبعاده ١٩٠×١٦٠م.

تقع المستوطنة وسط سهول زراعية ذات تربة حمراء غنيّة، كما تحيط بهذه السهول بعض المرتفعات الصخرية؛ وهذه الطبيعة الجغرافية أسهمت منذ القِدم وإلى الآن في نمو النباتات والأشجار؛ كما يتمتع الموقع بميزة استراتيجية، بوقوعه على الطريق الذي يصل بين جنوب بلاد الشام والأناضول، وهما المنطقتان الأهم في عصور ما قبل لتاريخ؛ كما كان له أيضا أهمية خاصة في العصور التاريخية، حيث طريق الحرير وخط قطار الشرق السريع الذي ربط مصر والشرق الأوسط والأناضول وآسيا الوسطى (الخريطة ١).

عملت البعثة الأثرية السورية-البولونية المشتركة في الموقع، في الفترة ما بين ١٩٩٩ – ٢٠١١م، وقد تم تنقيب أكثر من ٨٠٠م٢. وكشفت أعمال التنقيب الأثري في التل عن غنى استثنائي، وآثار استيطانية كان أبرزها عصر ما قبل العصر الحجري الحديث» «Proto-Neolithic والعصر الحجري الحديث ما قبل الفخار -أ- (-Pre) (PPNA pottery Neolithic A)[٣]. فالعمارة تمثّلت بالتنوع الكبير للبيوت السكنية، إضافة إلى منشآت ضخمة تضمنت مجموعة من المباني التي تستخدم لأهداف لها علاقة بالنشاطات المجتمعية، سواء المدنية أو المقدسة، والعناصر المعمارية المميزة كالأبراج الخمسة، والمنزل الشبكي (الجماعي/ المقدس) ومنزل يحتوي في داخله على جماجم الثور. (Mazurowski 2012:48).

وبهدف معرفة فترة الاستيطان بشكل واضح تم أخذ ٥٧ عيّنة من الكربون من طبقات ومربعات مختلفة في الموقع،



الخريطة ١ : موقع تل القرامل بين مواقع العصر الحجري الحديث.

ومن ثَم تم إجراء تحليل مخبري لها، بهدف الحصول على تأريخ مطلق عن طريق الكربون المشعّ. وقد بينت النتائج وجود استمرار في الاستيطان ومن دون انقطاع، من مرحلة ما قبل العصر الحجري الحديث (Proto–Neolithic) إلى مرحلة الـ PPNA أي من ١٠٧٠٠ق.م إلى ٩٤٠٠ ق.م (Mazurowski et al. 2009: 779)، وقد قُسّمت هذه الفترة إلى أربع مراحل استيطانية فرعية سميت H1, H2, H3, H4 وقد اكتُشفت جميع القبور في المرحلة الثالثة والرابعة فقط. مع العلم بوجود فترة استيطان أقدم تعود إلى الفترة ١٢٠٠٠– ١٤٠٠٠ قبل الميلاد سميت H04.

القبور

تم اكتشاف ٢٨ قبراً تحوي ٣٦ هيكلاً عظمياً بشرياً في تل القرامل، هذه القبور توزّعت على مربعات التنقيب (-K 4, L-4, M-4) في القسم الجنوبي من منطقة التنقيب. ومن الملفت للانتباه عدم وجود قبور في مربعات التنقيب الأخرى. وقد تنوّعت أساليب الدفن فيها ما بين القبور الفردية (٢٤ قبرا)، والجماعي (٤ قبور)؛ كما وُجِد الدفن الأولي (٩ هياكل)، والثانوي (١٢ هيكلا)، وكان هناك دفن لكامل الجسم (١٣ قبرا)، أو من دون الجمجمة (٦ قبور)، أو قبر للجمجمة فقط (١١ جمجمة منفصلة). وكانت جميع الهياكل في وضعية الجنين، تجاوزت أعمارهم سن البلوغ (ومن بينهم ٧ رجال، و٢ نساء، و١١غير محددي الجنس)، جميع القبور وجدت تحت أرضيات السكن وأحيانا على علاقة مع «المباني العامة»، ولم نتمكن من العثور على أي مرفقات واضحة للهيكل، مثل: الحلي أو الخرز (الجدول ١).

الجدول ١: يبين إجمالي الهياكل العظمية وأنواع القبور المكتشفة.

المرحلة	هيكل كامل	جماجم معزولة	هيكل بلا جمجمة	النوع		قبر افرادي	قبر جماعي	المجموع	
				أولي	ثانوي			القبور	الهياكل
H3	٧	٥	٣	٦	٥	١٣	٢	١٥	١٧
H4	٦	٦	٣	٣	٧	١١	٢	١٣	١٩
المجموع	١٣	١١	٦	٩	١٢	٢٤	٤	٢٨	٣٦

قبور المرحلة الثالثة H3

تم الكشف عن ١٥ قبراً تعود إلى المرحلة الثالثة، تسعة منها وجدت على علاقة مباشرة أو غير مباشرة مع المباني المميزة بالشكل والوظيفة في الموقع، وكانت غالبا قبور ثانوية، أما القبور الأخرى فوجدت بشكل فردي وغالبا ما تكون أولية. ونعرض فيما يأتي وصفاً للمباني والقبور المكتشفة داخلها[٥]:

البيت الجماعي أو المعبد: Shrine /Common House

اكتشف في الزاوية الجنوبية الغربية من المربع /K-4b,d L-4a,c. وهو بناء أبعاده ٥×١٠م، اتجاهه شرق-غرب، جميع الجدران السفلية فيه بُنيت من الحجارة الضخمة والمتوسطة الطبيعية؛ اكتشف فيه عدد من المكتشفات المهمة التي تشير على أنه مبنى مخصص للطقوس، مثل: الأداة الصوانية الطويلة من نوع أريحا، ودمية مؤنّثة مصنوعة من الحجارة الكلسية البيضاء، وموقد كبير في الوسط، إضافة إلى وجود مصطبة ذات شكل هلالي بالقرب من الجدارين الشمالي والجنوبي. يتألف المبنى من ثلاثة أقسام، الجزء الرئيسي (الأوسط) من المبنى، ويحتوي على تقسيمات داخلية، وهو ذو مخطط إهليلجي قطره ٥م، دائري الشكل يحتوي على موقد كبير في المركز، محاط بجدار من الحجارة الصغيرة ما عدا الجانب الشرقي الذي ترك مفتوحا. في داخل الموقد توجد عظام طويلة، محروقة جزئيا، تعود لمجموعة متنوعة من الحيوانات (Mazurowski 2012 :52).

اكتشف في هذا القسم أربعة قبور بشرية (تضم هياكل عظمية آدمية) وقبرين لحيوانين؛ القبر رقم ١٢، وهو قبر بشري يتجه شمال-جنوب، الهيكل العظمي في وضعية الجلوس، وهو من دون جمجمة، وجد في حفرة بيضاوية محاطة بالحجارة بالقرب من الموقد. قبران بشريان آخران (القبر رقم ٨ ورقم ١٠) اكتُشفا بالقرب من الموقد ضمن حفر، ومحاطان بالحجارة، وقبر آخر من دون جمجمة (رقم ١١) وُجد بالقرب من الجدار الشمالي خارج المبنى، يتجه القبر شمال-جنوب والهيكل العظمي في وضعية الجنين على الجانب الأيمن. إضافة إلى ذلك وجدت هياكل غير كاملة لثيران برية مدفونة بشكل نظامي في الجدارين الشمالي والجنوبي من القسم البيضاوي المشار إليه سابقا (اللوحة ١).

يتصل بالمبنى من الغرب «الحنية» apse وهي (منشأة معمارية صغيرة ملحقة نصف دائرية)، تحتوي على «مسلة» حجرية مركزية، عليها أربع حفر على السطح المستوي (ثلاث منها ما تزال موجودة كما هي).

عُثر على ثلاثة قبور بشرية وقبر حيواني داخل الحنية؛ القبر ٩، وهو قبر جماعي يحتوي على بقايا عظمية لثلاثة أشخاص بالغين موضوعين على الجدار الغربي في وضعية القرفصاء، إلى الشمال مباشرة من المسلة. بعد ذلك كان القبر رقم ١٤ وفيه هيكل عظمي لحيوان مفترس ربما نمر. قبر لشخص أخر، رقم ١٥، عظامه محطمة بشكل كبير كان موجودا تحت المجموعة السابقة. إلى الشمال من المسلة وبالقرب من الجدار، وُجِد القبر ١٣ الذي عثر فيه على هيكل عظمي لشخص واحد مدفون في وضعية الجنين وهو يتجه بمحور شمال-جنوب.

المبنى كان متصلاً من الجانب الشرقي بملحق مستطيل مؤلف من عدد من الجدران الحجرية المتوازية، (grill) محاط بجدران خارجية متماثلة البنية، وهذا يعد القسم الأمامي لهذا المبنى، وربما كان يتم الدخول من خلاله. وقد عُثِر في هذا القسم على قبر واحد (القبر رقم ٧) وجد بين الجدران المتوازية، وهو يتجه بمحور شرق-غرب، والهيكل بوضعية الجنين على الجانب الأيمن.

٢ — الأبراج Towers

وهي خمسة أبراج متتالية زمنيا، وجدت في المكان نفسه، آخرها البرج رقم ١، وهو بشكل شبه دائري بقطر



اللوحة ١: توزيع القبور البشرية والحيوانية في المنزل الجماعي-المقدس (الأرقام تشير إلى القبور البشرية و الحروف ترمز إلى القبور الحيوانية).

٦,٥م تقريبا، وقد بنيت جدرانه من صفين من الحجارة بعرض ١,٥م تقريبا، وفي الوسط يوجد موقد. قد يكون لهذه الأبراج وظيفة دفاعية أو طقوسية، ربما تغيّرت حسب الزمن. وُجِد قبر وحيد في الجهة الشرقية الجنوبية للبرج ١ بين حجارة جدارنه (قبر رقم (To-04)، وهو قبر جماعي يحتوي على أربع جماجم بشرية (TO-04-1,-2,-3,-4)، إضافة إلى فكين سفليين غير مرتبطين بالجماجم السابقة. تعود جميع الجماجم لأشخاص بالغين وتظهر عليها علامات ضخامة في عظام الجمجمة.

الفكّ السفلي الأول (TO-04-5) يعود لرجل شوهد عليه آثار قطع (cutmarks) بأداة صوانية على الجانب الداخلي الأيمن، وهي خطوط متوازية طولية من الأعلى إلى الأسفل، ربما كان الهدف منها فصل الفك السفلي عن الجمجمة. وفي هذا المكان بالتحديد يوجد عدد من أوتار العضلات التي تربط الفك السفلي بالجمجمة، كما أن عملية القطع حدثت عندما كان العظم ما يزال في حالته الطرية، ما أدى إلى تسجيل عملية القطع بوضوح على العظم (اللوحة ٢).

القبر رقم (١٠-٩) والقبر رقم (١١-٩):

وهي قبور فردية أولية في وضعية الجنين لأشخاص بالغين، وجدت في المربع L4/M4 وليس لها علاقة مع المباني المميزة (اللوحة ٣).

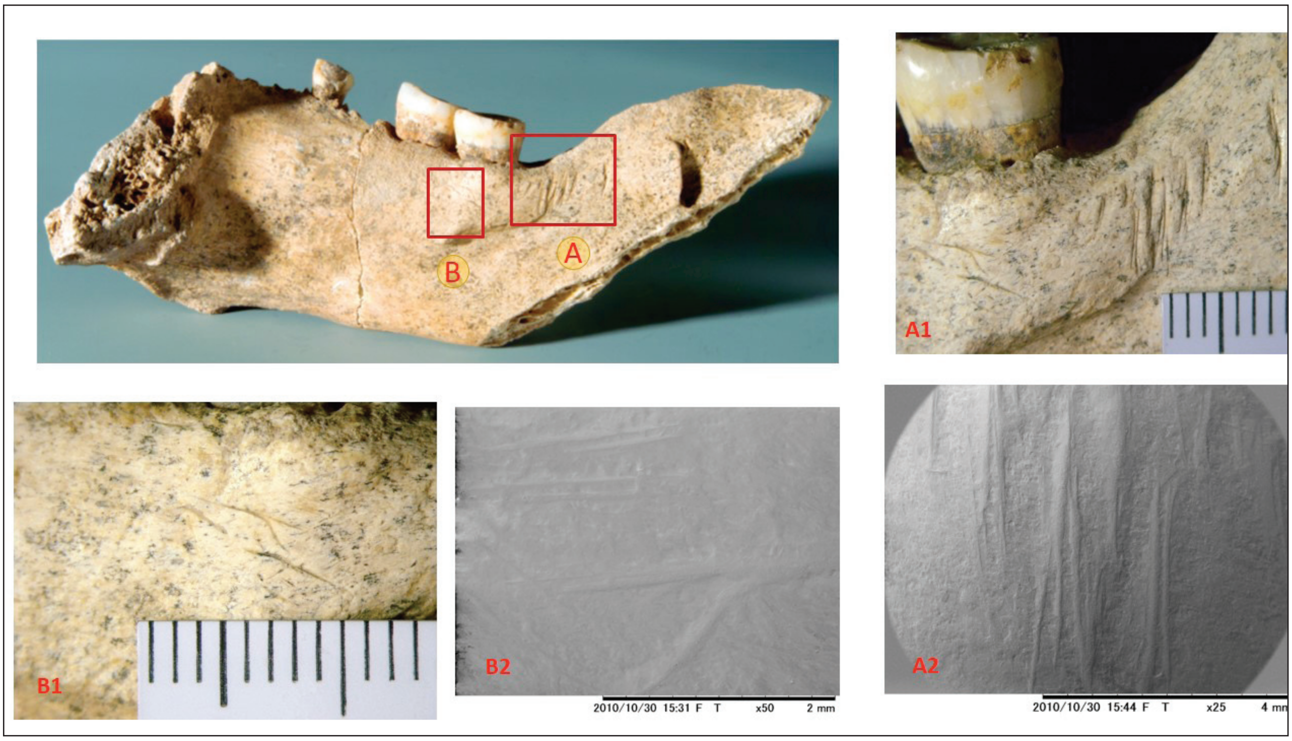
قبور المرحلة الرابعة:

وهي المرحلة الأخيرة من استيطان الموقع في فترة ال PPNA، وبلغ عدد القبور من هذه المرحلة ١٣ قبرا.

وفيما يأتي وصف لأهم القبور:

القبر رقم T2-07

وجد القبر باتجاه شرق-غرب وليس على علاقة مباشرة مع أي مبنى، وهو في وضعية الجلوس، يحتوي على هيكل عظمي فردي (T2-07-9) من دون الجمجمة والفك السفلي والفقرة العنقية الأولى (الأطلس)، الهيكل العظمي في وضعه الطبيعي (دفن أولي في المرحلة الأولى)، العمر ٤٠ سنة والجنس أنثى[٦].



اللوحة ٢: آثار القطع على الفك السفلي من الداخل، وتظهر آثار القطع في منطقتي A و B. الرقمان ١، ٢ مع الحروف تشير إلى تكبير منطقة القطع نفسها.

شوهدت آثار قطع (cutmarks) في ثلاث مناطق بأداة حادة على الفقرة العنقية الثانية (المحور)، وهي آثار قطع بالصوان، بهدف فصل الرأس (الجمجمة) عن الجسم. وهذه الآثار توجد في منطقة اتصال الفقرة الأولى (الأطلس) مع الفقرة الثانية (المحور)، وهي عبارة عن عدد من الخطوط المتوازية وبشكل طولي بالنسبة للعمود الفقري، ومن اليسار إلى اليمين وبالعكس، وهي تتركز في موضع واحد؛ وهذا دليل على الخبرة لديهم، إذ عرفوا أن هذه المنطقة هي منطقة انفصال الرأس عن الجسد وهي الأضعف في الجسم، كما يشير ذلك إلى استخدام أداة حادة جدًا وطويلة، للوصول إلى هدفهم هذا (اللوحة ٤).

القبر رقم T4-07

وجد القبر بمحور شمال-جنوب، والهيكل في وضعية الجلوس، ونوع الدفن أولي، وهو قبر فردي يحتوي على هيكل عظمي كامل (T4-07-11)، الجنس ذكر، العمر بالغ كبير، الحالة الصحية مريض في العمود الفقري، يلاحظ نمو في حواف وزوائد الفقرات الوسطى، ويوجد التصاق ما بين هذه الفقرات، ما يدل على انحناء العمود الفقري؛ لذا، فربما كان مصاباً بمرض (Osteophytes) (اللوحة ٥).

القبر رقم T5-07:

وهو قبر جماعي يتألف من جمجمة إنسان بالغ (T5-07-12)، وفكين سفليين كانا إلى جانب الجمجمة. الفكان فوق بعضهما وبشكل معاكس، وهما غير مرتبطين بالجمجمة؛ وبالتالي ربما لدينا ثلاثة أشخاص بالغين في مكان واحد (اللوحة ٦).

وجدت الجمجمة مع الفقرة الرقبية الأولى (الأطلس) وهي تعود لشخص بالغ ذكر، يُقدر عمره بنحو ٣٠ سنة.

القبر رقم ٦-٧

يتجه القبر بمحور جنوب-شمال، ويحتوي على هيكل عظمي في وضعية الجنين (T 6-07-15) من دون الجمجمة والفك السفلي (اللوحة ٦).

وهو هيكل عظمي لشخص بالغ خالٍ من الأمراض العظمية. وهو غير محدد الجنس والعمر.



اللوحة ٣: القبر رقم ١٠، وهو قبر أولي في وضعية الجنين على الجانب الأيمن.

القبر رقم ٧-٧

و هو قبر يحتوي على جمجمة واحدة من دون الفك السفلي (T7-07-16)، الجنس أنثى، والعمر بالغ كبير.

قبر رقم (٨ -٧)

وهو قبر جماعي يضم هياكل لأربعة أشخاص، وهي:

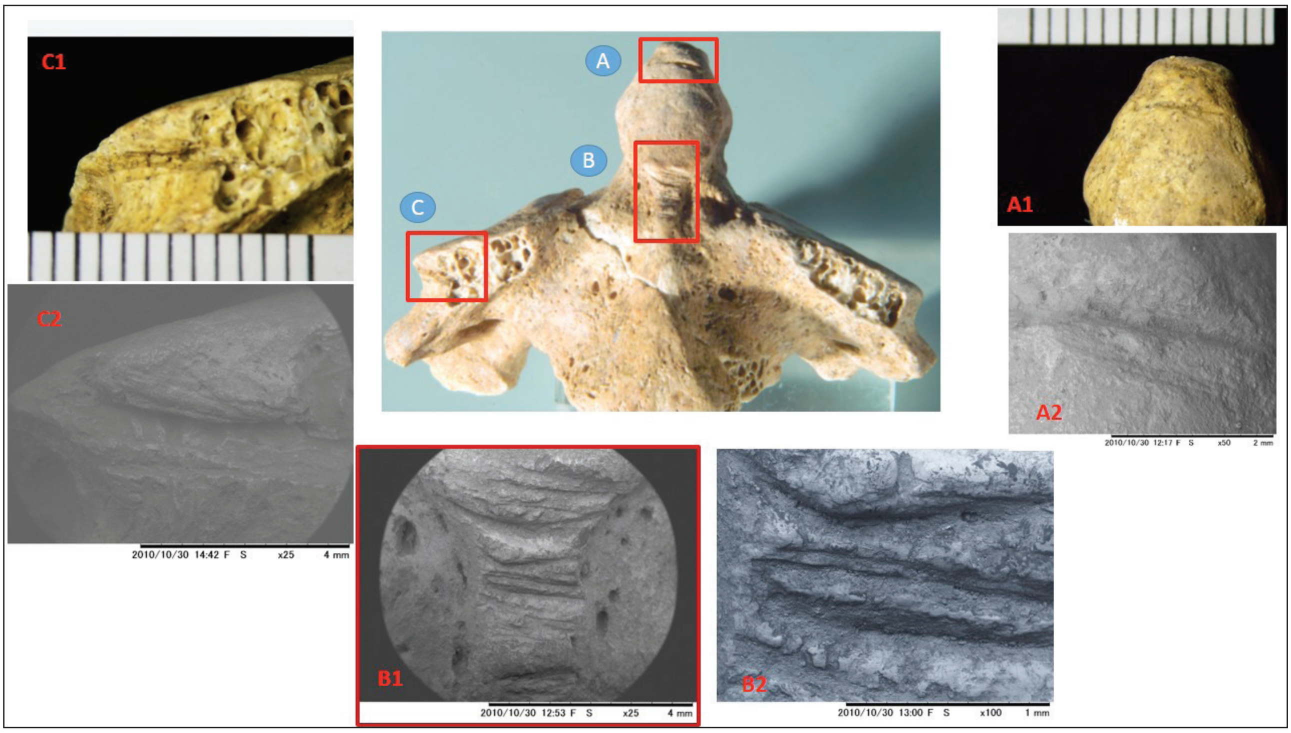
- جمجمتان لشخصين بالغين وضعتا إلى جانب الهيكل، وهي ليست على علاقة تشريحية مع الهيكل العظمي، تتجهان نحو الغرب.
- هيكل عظمي بلا جمجمة في وضعية الجنين، وجميع أجزائه في مكانها الطبيعي.
- جزء من فك سفلي.

الجمجمة الأولى (T8-07-17)، الجنس أنثى، العمر بالغ؛ بينما الجمجمة الثانية (T8-07-18)، الجنس ذكر، العمر بالغ؛ الهيكل العظمي (T8-07-19) وهو لشخص بالغ غير محدد الجنس؛ وأخيرا الفك السفلي (T8-07-1-20) يعود لشخص بالغ، الجنس ذكر، وهو عبارة عن الجزء الأيمن للفك. لوحظ أن هذا الفك وُجِد تحت الهيكل العظمي، وهو مكسور بشكل نصفي عندما كان العظم ما يزال طريا (اللوحة ٦).

ملاحظة: توجد القبور ٥-٨ ضمن بنية معمارية واحدة، وعلى علاقة مباشرة مع أرضية هذه البنية التي لم نتمكن من تحديد طبيعتها، بسبب ازالتها بفعل مراحل الاستيطان الأحدث.

النتائج

إنَّ جميع القبور وجدت في مربعات متجاورة - كما ذكرنا سابقا- والقسم الأكبر وُجِد في المنزل الجماعي أو المقدس، وهذا يدخل في نطاق تخصيص منطقة محددة



اللوحة ٤: آثار القطع على الفقرة الرقبية الثانية في القبر رقم ٢ ، والحروف A وB وC تشير إلى أماكن وجود القطع على الفقرة. بينما الأرقام ١ و ٢ و٣ تظهر التكبيرات بالمجهر الإلكتروني لكل منطقة.

للدفن من قبل المجتمع، وعلى علاقة هذه المنطقة مع الأبنية الخاصة، إذ عثر على ١١ قبرا على علاقة مباشرة مع المبنى، بينها ثلاثة قبور حيوانية، وعلى خمسة قبور على علاقة غير مباشرة؛ أي على ما مجموعه ١٦ قبرا من أصل ٢٨ قبرا مكتشفا. وبنسبة ٦٠٪ من القبور كانت على علاقة مع المنزل الجماعي. وهذا يشير إلى الوظيفة الخاصة لهذا المنزل عندما كان ما يزال في الخدمة، وإلى استمرار أهميته حتى بعد هجره، إذ استمر المجتمع بدفن موتاه في المكان نفسه، وهذا يفسر وجود القبور من المرحلة H3, H4 في ذلك المكان. أي أن هناك علاقة وظيفية تاريخية مع المكان.

كما لوحظ أن القبور الأولية (Primary burials) (كامل الهيكل العظمي) توجد عادة خارج الأبنية الخاصة، بينما القبور الثانوية (Secondary burials) سواء كانت جماجم مفردة أو هياكل بلا جماجم، تكون على علاقة مباشرة مع الأبنية المميزة في الشكل والوظيفة.

تتميز القبور المكتشفة في تل القرامل بأنها قبور للبالغين فقط، أي أنها تحتوي على هياكل عظمية لأشخاص بالغين (ماتوا بعد سن العشرين)، وهذا يدل على تمييز حسب العمر بالنسبة لمنطقة الدفن، وبالتالي يفترض وجود أماكن مخصصة للدفن لكبار السن، ومنطقة أخرى قد تكون أقل أهمية لصغار السن؛ وهذا واضح، إذ إن القبور وجدت على علاقة مع مباني مميزة كما أشرنا سابقا. وهذا قد يكون دليلاً على عدم اهتمام بالدفن بالنسبة لمن ماتوا قبل سن البلوغ، وبالتالي تم إهمالهم ودفنهم في أماكن أخرى، لم تكتشف بعد.

وجد أن الحالة الصحية للأضراس والأسنان لسكان تل قرامل، بشكل عام جيدة، مقارنة مع الفترات اللاحقة؛ وهي دلالة ثقافية مهمة على مستوى نوع التغذية السائدة في تلك الفترة؛ إذ يشير ذلك إلى انخفاض كمية الكربوهيدرات في الغذاء، وبالتالي انخفاض كمية السكريات، والذي قد يعني قلة طهي الطعام، وبخاصة الحبوب مثلا. إذ إن طهي الحبوب وما شابه، يؤدي إلى تفكّك المواد الكربوهيدراتية والتحوّل إلى سكريات، والذي يعد الداء الرئيس الذي يصيب الأسنان (Kanjou 2009: 33)، وقد لوحظ انتشار الأمراض التي تصيب الأسنان مع ظهور الزراعة في مختلف المجتمعات

الزراعية الأولى، ويؤكد ذلك أن مجتمع تل القرامل لم يكن بعد مجتمعا زراعياً، إذ كان ما يزال يعيش على التقاط الحبوب والصيد، كما بيّنت الدراسات البيئية أن جميع عظام الحيوانات التي وجدت في الموقع كانت برية، وكذلك البقايا النباتية (Willcox & Herveux 2012:128; Grezak 2012:118) .

ومن المؤكد، أنه في تل القرامل يوجد لبعض الأشخاص قبران؛ قبر للجسم وآخر للراس أو الجمجمة. وقد يكون ذلك لما يتمتع به الأخير من أهمية رمزية لديهم، وهذا ناتج عن اعتقادات دينية واجتماعية تسيّر وتحكم طقوس ما قبل الدفن وما بعده (كوفان ١٩٨٤: ١٦٤)؛ وبالتالي فإن ذلك يتطلب غالبا أن تكون عملية الدفن على مرحلتين، ففي المرحلة الأولى يكون الدفن أوليا، فيدفن كامل جسم المتوفى في حفرة تحت الأرض، بينما يتحول إلى دفن ثانوي في المرحلة الثانية[٧] ويتم ذلك عندما يفتح القبر وتُسحب الجمجمة وتوضع في مكان آخر. إذاً فالقبر الأول الخاص بالجمجمة وربما هو الأهم، يوضع في مكان مهم بالنسبة للمنزل أو مكان مهم آخر، عادة يكون مترافقاً مع مجموعة من الجماجم؛ والقبر الثاني يكون لباقي أجزاء الجسم ويدفن في وضعية القرفصاء تحت أرضية منزل السكن، مع إمكانية نقل الجمجمة من مكان إلى آخر، في حال تغيير مكان السكن (Kujt 2008 : 176; Kanjou 2009: 34) .

ومن خلال دراسة القبور والهياكل العظمية المكتشفة في تل القرامل، نعتقد بوجود طريقتين على الأقل للحصول على الجمجمة في الفترة النيولتية في المشرق؛ الأولى من خلال عملية الدفن التي تتم على مرحلتين كما ذكرنا سابقا، إذ يدفن الشخص المتوفّى لفترة زمنية قصيرة، ومن ثم يجرى إعادة فتح القبر، وتؤخذ الجمجمة فقط، ونستدل على ذلك بوجود الفقرة العنقية الأولى (الأطلس) والفك السفلي مع الهيكل العظمي الذي يبقي بوضعه الطبيعي[٨] كما هي الحال في القبر (T7-07) في تل القرامل، وعملية سحب الجمجمة تتم بعد الدفن مباشرة، حيث أوتار العضلات تكون ما تزال رابطة للعظام الأخرى، وعادة تتم بفتل الجمجمة بشكل ماهر ويستدل على ذلك بوجود بعض الهياكل مقلوبة في أريحا وموقع البيضا (كوفان ١٩٨٤:١٦٤).



اللوحة ٥: القبر رقم ٤ وهو في وضعية الجلوس، إضافة إلى الفقرة الظهرية، والذي تظهر عليها علامات المرض.



اللوحة ٦: توزيع القبور من ٥ إلى ٨ .

اما الطريقة الثانية، فهي فصل الرأس عن الجسم بأداة صوانية حادة، بعد الموت مباشرة، ومن ثم دفن الجسم من دون الرأس في مكان ما، بينما الرأس يوضع في مكان محدد آخر وليس بالضرورة أن يكون المنزل، ونستدل على ذلك بوجود الفقرة العنقية الأولى (الأطلس) مع الجمجمة (حالة القبر T5-07)، ووجود آثار قطع على الفقرة العنقية الثانية (المحور)، وهذه الأخيرة حالة خاصة في تل القرامل (حالة القبر T2-07)، إذ لم يعثر على حالة مماثلة في أي موقع من المواقع الأثرية العائدة إلى هذه الفترة، وهي تعد أقدم حالة قطع رأس مكتشفة حتى الآن. ومن خلال الدراسة المخبرية التي أجراها الباحث في جامعة طوكيو[٩] لهذه الحالة تبين أنها تمت بأداة صوانية، إذ تظهر بوضوح آثار القطع المميزة للأداة الصوانية التي تأخذ شكل حرف (V)، كما كانت القطوع متعددة ومتوازية، وفي ثلاث مناطق على

الفقرة العنقية الثانية، وفي منطقتين في حالة الفك السفلي المكتشف ضمن جدران الأبراج. كذلك تشير الدراسة إلى أنه لدى القرامليين خبرة بطريقة الفصل، والذي يؤكد قيامهم بالعملية عدة مرات، كما استنتجنا أن عملية قطع الرأس حدثت مباشرة بعد الموت (اللوحة ٤) (Kanjou et al 2013). حالة قد تكون مشابهة وهي حالة الهيكل العظمي المكتشف في المنزل الجماعي رقم EA30 في الجرف الأحمر من مرحلة (PPNA)، وهو مقطوع الراس ومدفون بوضعية تشير إلى عملية تضحية أو قربان بشري، حيث وضع تحت أرضية أحد المباني المهمة، الأيدي والأرجل متباعدة وجميع الفقرات العنقية موجودة باستثناء الرأس، إلا أنه لا توجد آثار قطع على الفقرات[١٠] (Stordeur & Abbès 2002 : 583).

ومن الواضح أنه يوجد في تل القرامل تنوّع في عادات الدفن من حيث وجود جماجم مفصولة وهياكل كاملة وهياكل بلا جماجم، وهذا مرده ربما إلى طبيعة المعتقدات تجاه الموتى والحياة بعد الموت.

وبمقارنة قبور المرحلتين الثالثة والرابعة نلاحظ استمرارية في عملية الدفن بالأسلوب نفسه، مع زيادة في نسبة الجماجم المعزولة، التي أصبحت من العادات الشائعة في المراحل اللاحقة، وهي تدل على احترام وتقديس وعبادة الأجداد والعلاقة الروحية والمادية بين الحياة والموت (Rollefson 1986:51). ويعتقد أن أصول هذه العادة تعود إلى الفترة النطوفية، إذ اكتشفت أولى الدلائل على فصل الجماجم، وقد أتت من موقع الواد، في فلسطين، حيث وُجِدت جمجمة مفصولة ومزينة (Bar-Yosef 1998: 165). وفي فترة الـ PPNA انتشرت الظاهرة في شمال وجنوبي المشرق وجنوبي تركيا، الا أن الاهتمام كان في مرحلة الـ PPNB إذ تطورت إلى عادة قولبة الجمجمة بعد فصلها، وخصوصا في جنوبي سورية؛ فقد عُثر على العديد منها كما هي الحال في تل أسود، حيث كانت الجماجم المقولبة في مجموعات وجد في إحداها خمس جماجم مقولبة (مفصولة) مرتبة حول هيكل عظمي بلا جمجمة في وضعية الجنين (Stordeur 2003 : 110).

وفي موقع عين غزال في الأردن، أيضا وُجِدت عدة جماجم في مجموعات، وعلى علاقة مع المباني السكنية، وأحيانا تكون ملتفة حول الهيكل العظمي، وأحيانا أخرى تكون مقولبة؛ وهناك هياكل دفنت بشكل كامل وهياكل أخرى ناقصة الجمجمة (Rollefson 1986: 50).

وفي موقع أريحا (PPNA) في فلسطين، وجد كينون عدة قبور لجماجم فقط، وجدت في أحدها مجموعة من الجماجم على شكل دائرة تنظر نحو الداخل؛ وفي حالة أخرى كان هناك مجموعة من ثلاث جماجم تنظر إلى الاتجاه نفسه، كما وُجِد هيكل عظمي لطفل ومعه جماجم أطفال فقط، إضافة إلى وجود قبور أولية جماعية أو فردية في الموقع (Kenyon 1957: 63).

الا أن قولبة الجمجمة لم تكن شائعة في هذه الفترة في أي موقع من مواقع شمالي سورية، المكتشفة على نهر الفرات كموقع جعدة المغارة، وتل المريبط أو تل حالوله. (Ortiz A. et al. 2013: 4153).

وبمقارنة عادات الدفن في تل القرامل مع المواقع الأخرى من الشمال السوري (منطقة الفرات الأوسط) في فترة الـ PPNA، نلاحظ تشابهاً من خلال الخطوط العامة لعادات الدفن؛ فقد عثر في الجرف الأحمر مثلا على مجموعتين من الجماجم المفصولة، الأولى فيها جمجمتان مرتكزتان على دعامة، والثانية فيها ثلاث جماجم كانت مغطاة بكتلة حجرية، وبالقرب من موقد؛ كما عثر على هياكل مدفونة بشكل كامل أو ناقصة الجمجمة (Stordeur & Abbès 2002 : 583). وفي جعدة المغارة عُثر على ثلاثة قبور: الأول قبر يحتوي على هيكل كامل مدفون دفنا أوليا في بيت الرسومات؛ والثاني (SP659) قبر لجمجمة مع الفك السفلي على أرضية منزل؛ والثالث (SP627) أيضا قبر لجمجمة مع الفك السفلي ضمن حفرة في أرضية منزل؛ إضافة إلى العديد من القبور الأولية والثانوية والجماعية الأخرى (Coqueugnio 2007). وفي تل المريبط (PPNA) عثر على قبرين ثانويين من هذه المرحلة، الأول داخل بيت دائري عبارة عن جمجمة وبعض العظام الأخرى؛ والقبر الثاني بالقرب من البيت الدائري يحتوي على بعض عظام

الأطراف والحوض من دون الجمجمة (كوفان ١٩٨٤: ١٦١).

وفي مواقع عديدة من العصر الحجري الحديث في تركيا، عثر على جماجم معزولة أيضا، كموقع شاتل هيوك وشيانو، وفي نيفال كوري عثر على خمس جماجم في حفرة واحدة (Huaumptmann 1988: 99).

وأخيراً، فإن التشابه في الخطوط العامة في معالجة الموتى من قبل القراميليين في الفترة النيولتية مع المواقع الأخرى من الفترة نفسها، سواء في شمال أو جنوب المشرق والذي تجلّى في ارتباط عمليات الدفن مع الأبنية العامة والسكنية، وعملية فصل الجماجم ودفنها؛ سواء في مجموعات أو بشكل منفصل مع استمرار الدفن الثانوي والأولي والجماعي. يشير هذا التشابه إلى وحدة في تقاليد وطقوس الدفن والمعتقدات العامة وهذا بدوره قد يكون عائدا إلى انتشار هذه العادات بسبب التواصل أو الهجرة، وهذا الأخير قد يشير إلى أصل مشترك للمجتمعات النيولتية في بلاد الشام والذي عبر عنه كوفان بالوحدة الحضارية لبلاد الشام في العصر الحجري الحديث، ولا سيما أن المنطقة بيئيا وجغرافيا متشابهة في تلك الفترة (كوفان ١٩٨٤).

د. يوسف كنجو: متحف جامعة طوكيو، اليابان؛ متحف حلب الوطني - سوريا.

الهوامش:

١ يقسم العصر الحجري الحديث في مرحلة ما قبل الفخار في المشرق إلى قسمين رئيسن: الأول، مرحلة ما قبل الفخار –أ– والتي يرمز لها عادة PPNA وذلك اختصاراً من -Pre-Pottery Neolithic – A والتي تمتد من الألف العاشرة إلى الألف التاسعة قبل الميلاد. والثاني، مرحلة ما قبل الفخار –ب– PPNB من -Pre-Pottery Neolithic – B والتي يمتد تاريخها من الألف التاسعة حتى الألف السابعة قبل الميلاد تقريبا.

٢ كاتب المقال مدير الجانب السوري في البعثة ومسؤول عن الدراسة الأثربولوجية.

٣ هناك فترات أخرى في التل أيضا من عصر البرونز والحديد والهلنستي والعثماني.

٤ المكتشفات كانت فقط عبارة عن آثار المخيمات كمواقد النار وأماكن أعمدة الخيم.

٥ بُني الجزء السفلي لجميع هذه الأبنية من الحجارة الطبيعية وهي ذات أبعاد كبيرة نوعا ما، بينما الأبنية السكنية الأخرى بنيت من الطين؛ وهذا ما يميزها بشكل واضح، إضافة إلى المحتويات.

٦ تم تحديد العمر والجنس بالاعتماد على (Buikstra and Ubelaker 1994).

٧ يُقصد بالدفن الأولي عندما يكون الهيكل العظمي كاملا وفي وضعه التشريحي في القبر؛ بينما يكون الدفن ثانويا إذا كان الهيكل العظمي ناقصاً أحد أجزائه.

٨ حالة القبور المكتشفة في جنوبي سورية والأردن كتل الرماد وتل أسود وعين غزال.

٩ جرت الدراسة في جامعة طوكيو قسم الأنثروبولوجيا وباستخدام جهاز Scanning Electronic Microscope (SEM) والذي يعطي تكبيرات عالية.

١٠ نعتقد أن البدايات الأولى لعادات فصل الجمجمة كانت باستخدام أداة حادة قبل الدفن بينما في المراحل اللاحقة تطورت العملية لتصبح بعد الدفن.

المراجع:

أولاً: المراجع العربية

أبو غنيمة، خالد ١٩٨٩، «أساليب الدفن وعادته في العصور الحجرية الأولى (٩٥٠٠ – ٨٥٠٠ ق.م)»، **أبحاث اليرموك**، العدد: ١٤، ص ٧٩-١٢١.

كوفان، جاك ١٩٨٤ **الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألفين التاسع والثامن قبل الميلاد.** (ترجمة قاسم طوير). مطبعة سورية. دمشق.

محيسن، سلطان ١٩٩٤ **بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ: المزارعون الأوائل.** الابجدية للنشر، دمشق.

ثانياً: المراجع غير العربية

Bar-Yosef O. 1998. The Natufian culture in the Levant, threshold to the origins of agriculture. **Evolutionary Anthropology**: Issues, News, and Reviews **6:** 159-177.

Binford L. R. 1971. Mortuary practices: their study and their potential. In Memoirs of the **Society for American Archaeology**, Approaches to the social dimensions of mortuary practices, No. 25, pp. 6–29.

Buikstra J.E. and Ubelaker D. H., 1994. **Standards for Data Collection from Human Skeletal Remains**. Arkansas Archaeological Survey Research Series No. 44.

Coqueugnio, Eric 2007. DJA›DE EL MUGHARA (Syrie) Rapport Scientifique de la campagne 2007. DGAM, Dmascus. Syria.

Contenson H. 1992 Les coutumes funéraires dans le Neolithique syrien. **Bulletin de la Société Préhistorique Française** 89(6), 184-191.

Grezak , Anna 2012. Animal Bone Remains from Tell Qaramel. Mazurowski R.F. & Kanjou Y**. (eds)** 2012. **Tell Qaramel 1999-2007.** PCMA No.2. University of Warsaw. Poland.

Hauptmann H. 1988. Nevali Cori: Architektur. **Anatolica** 15**:** 99-110.

Kanjou Y. 2009. Study of Neolithic human graves from tell Qaramel in north Syria. **International Journal of Modern Anthropology** 2**:** 25-37.

Kanjou, Y., (2012). Anthropological results examination of human bones in Tell Qramel. **In** Mazurowski R.F. & Kanjou Y**. (eds)** 2012. **Tell Qaramel 1999-2007.** PCMA No.2. University of Warsaw. Poland.

Kanjou, Y., J. Gawrońska, A.Grabarek, (2012). Human and animal graves in Tell Qramel. In Mazurowski R.F. & Kanjou Y**. (eds)** 2012. **Tell Qaramel 1999-2007.** PCMA No.2. university of Warsaw. Poland.

Kanjou Y., Kuijt I, Erdal Y. S., and Kondo O. 2013; Early Human Decapitation, 11,700–10,700 cal BP, within the Pre-Pottery Neolithic Village of Tell Qaramel, North Syria. In **International Jornal of Osteoarchaeology**. doi: 10.1002/oa.2341.

Kenyon, K.M. 1957. **Digging up Jericho**. London.

Kuijt, I. 1996. Negotiating Equality through Ritual: A Consideration of Late Natufian and Pre-Pottery Neolithic A Period Mortuary Practices. **Journal of Anthropological Archaeology**, 15(4): 313-336.

Kuijt I. 2008. The regeneration of life: Neolithic structures of symbolic remembering and forgetting. **Current Anthropology** 49**:** 171-197.

Mazurowski R.F. 2012 Architecture of Tell Qaramel. In Mazurowski R.F. & Kanjou Y**. (eds)** 2012. **Tell Qaramel 1999-2007.** PCMA No.2. university of Warsaw. Poland.

Mazurowski RF, Michczynska DJ, Pazdur A, Piotrowska N. 2009.Chronology of the early pre-pottery Neolithic settlement tell Qaramel, northern Syria, in the light of radiocarbon dating. **Radiocarbon** 51**:** 771-781.

Ortiz A., Ph. Chambonb, and M. Molista 2013 "Funerary bundles" in the PPNB at the archaeological site of Tell Halula (middle Euphrates valley, Syria): analysis of the taphonomic dynamics of seated bodies. **Journal of Archaeological Science:** Volume 40, Issue 12, P4127-4792.

Rollefson G. 1986. Neolithic ‹Ain Ghazal (Jordan): Ritual and ceremony, II. **Paléorient** 12: 45-52.

Stordeur D. 2003. Des crânes surmodelés à Tell Aswad de Damascène (PPNB-Syrie). **Paléorient** 29**:** 109-115.

Stordeur D, Abbès F. 2002. Du PPNA au PPNB: mise en lumière d'une phase de transition à Jerf el Ahmar (Syrie). **Bulletin De La Société Préhistorique Française** 563-595.

Willcox, George & Linda Herveux 2012 Late Pleistocene/early Holocene Charred Plant Remains: A Preliminary Report. In Mazurowski R.F. & Kanjou Y**. (eds)** 2012. **Tell Qaramel 1999-2007.** PCMA No.2. university of Warsaw. Poland.